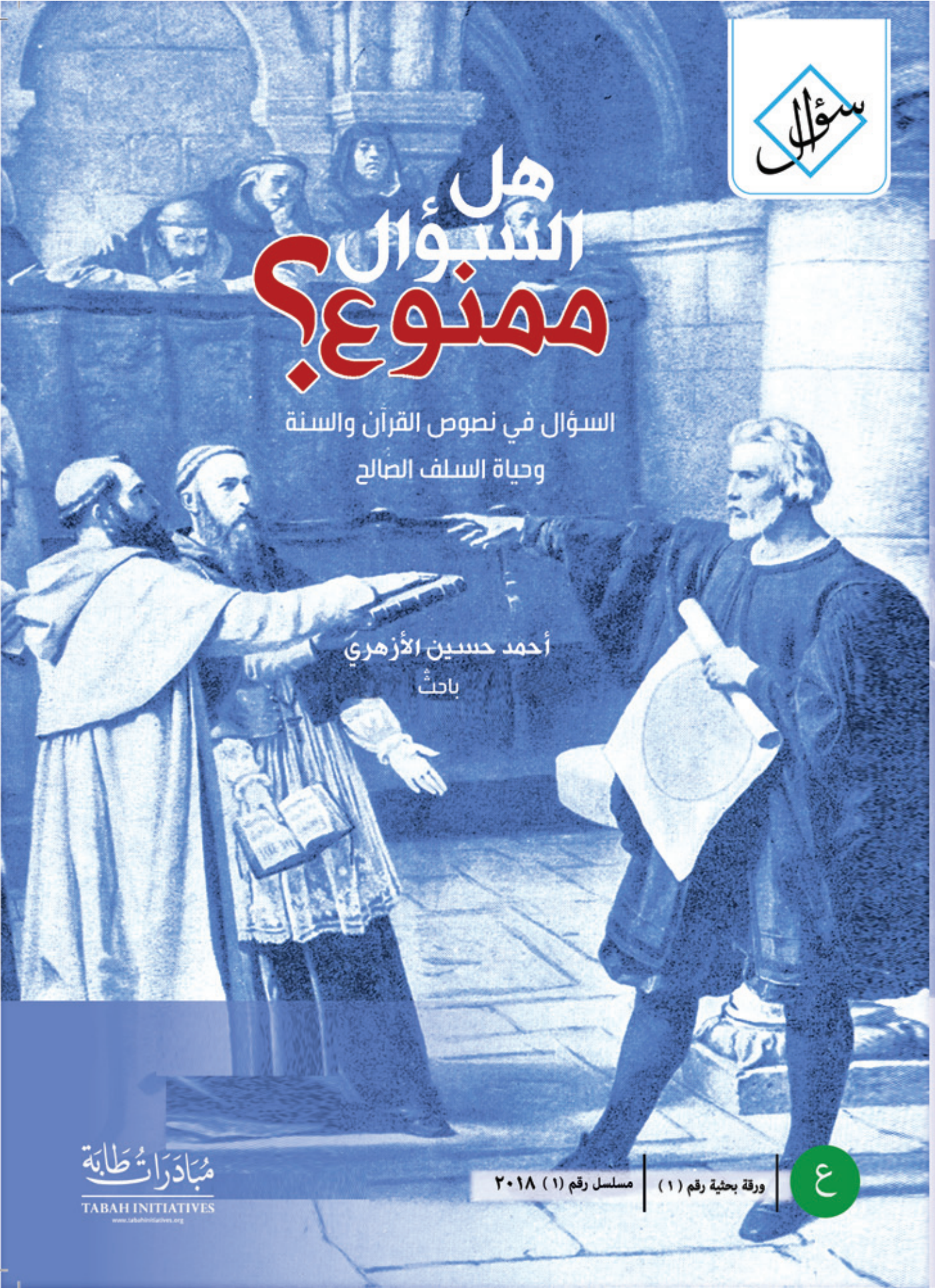

سؤال

هل السؤال ممنوع؟

السؤال في نصوص القرآن والسنة وحياة السلف الصالح

أحمد حسين الأزهري
باحث

ع | ورقة بحثية رقم (١) | مسلسل رقم (١) ٢٠١٨

مُبادَرات طابة
TABAH INITIATIVES
www.tabahinitiatives.org

هل السؤال ممنوع؟

السؤال في نصوص القرآن والسنة وحياة السلف الصالحين

تأليف

أحمد حسين الأزهري

باحث

من إصدارات مبادرة «سؤال»

بمؤسسة طابة للأبحاث والاستشارات

الترقيم الدولي : 978-9948-39-463-1

هل السؤال ممنوع

www.tabahfoundation.org

جميع الحقوق محفوظة c ، يمنع إنتاج أو توزيع أي جزء من هذا الإصدار بأي وسيلة دون موافقة خطية صريحة من مؤسسة طابة ، إلا في حالات الإقتباس المختصر مع العزو الدقيق ، والكامل في المقالات النقدية ، أو المراجعات .

مُبَادَرَاتُ طَابَة
TABAH INITIATIVES
www.tabahinitiatives.org

نبذة عن مؤسسة طابة :

هي مؤسسة غير ربحية تُعنى بتقديم أبحاث ومبادرات واستشارات وتطوير كفاءات، وتسهم في تجديد الخطاب الإسلامي المعاصر للاستيعاب الإنساني، وتسعى إلى تقديم مقترحات وتوصيات لقادة الرأي لاتخاذ نهج حكيم نافع للمجتمع بالإضافة إلى إعداد مشاريع تطبيقية تخدم المثل العليا لدين الإسلام وتبرز صورته الحضارية المشرقة مستندين في ذلك على مرجعية اصيلة واستيعاب للتنوع الثقافي والحضاري والانساني.

نبذة عن مبادرة سؤال :

"سؤال" مبادرة مجتمعية ترحب بالأسئلة الوجودية الشائعة بين الشباب والالتزام بحوار هادئ يحترم عقل الإنسان، ويملأ قلبه، ويناسب وجدانه وتعمل على خلق مساحة للاستفادة المتبادلة بين فريق المبادرة والشباب، من خلال عدة فعاليات وأنشطة متنوعة لمناقشة الأسئلة التي تشغل الأذهان، وتعتبرها شرائح مختلفة من المجتمع أسئلة محرمة أو ممنوعة، مبادرة " سؤال" لا سقف لديها للأسئلة مهما كانت جرأتها أو حساسيتها، وقدوتنا في ذلك سيدنا عبد الله بن عباس حينما قال أنه أوتي العلم بسبب لسان سؤول –أي كثير الأسئلة– وقلب عقول.

نبذة عن الباحث

أحمد الأزهري

باحث متخصص في تاريخ الفكر التربوي والفلسفي في العالم الإسلامي له تحقيقات ودراسات تراثية في أصول التعلم والتعليم وآداب المطالعة والمنطق، ومشاركات بحثية في الفلسفة وعلم الكلام والتصوف. درس الأنثروبولوجيا بالجامعة الأمريكية بالقاهرة ثم العلوم الإدارية والتواصل القيادي بجامعة تولين بالولايات المتحدة الأمريكية.

المقدمة

بسم الله والحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه.

أما بعد:

فإن السؤال في الإلهيات والقضايا الوجودية من القضايا التي تشغل كثير من الأذهان في زماننا، ومن جملة تلك الأسئلة المثارة: هل السؤال ممنوع؟ والمقصود هل يمنع الإسلام السؤال عن الله وأفعاله؟ هل يمنع الإسلام السؤال عن الحكمة من خلق الخلق؟ هل يمنع الإسلام السؤال عن الجبر والاختيار؟ ومن المظاهر المتكررة في عصرنا هو اجتماع طرفي النقيض على فهم واحد لنصوص القرآن والسنة ومواقف السلف الصالحين. فتجد المتطرف الديني يمنع السؤال في مثل هذه القضايا جملةً وتفصيلًا محتجًا بنصوص أساء فهمها وبنقول غاب عنه سياقها، وتجد أيضًا المتطرف اللاديني يزعم أن السؤال ممنوع بناءًا على نفس الفهم المغلوط الذي وقع فيه المتطرف الديني. فالنظارة واحدة، والمنظور واحد، ولكن تختلف أغراض الناظرين! وهذا شأن كثير من القضايا الدينية التي ينتشر الجدل فيها وتتهافت العقول على نقاشها، لا يُلتفت أن النزاع فيها هو نزاع بين الأغراض والمقاصد، وليس النزاع في فهم النصوص وإدراك المعاني. وقد سعيت في هذا البحث أن أجيب عن سؤال: «هل السؤال ممنوع؟» في ضوء الفهم التي تعلمناه من مشايخنا علماء الأزهر الشريف مع رفع الإشكالات التي وقع فيها كل من المتطرف الديني والمتطرف اللاديني. وقد قسمت البحث إلى مطلبين؛ أحدهما: السؤال

في القرآن والسنة، وتعرضت فيه إلى مكانة السؤال فيهما وإلى النصوص التي يتوهم أنها تفيد غلق باب السؤال في الإلهيات والنهي عن البحث العقلي في الوجوديات؛ وثانيهما: موقف السلف الصالح من السؤال، وتطرقت فيه إلى حضور السؤال حول تلك القضايا في حياة الصحابة وإلى مواقف تنتزع من سياقها وتفرغ من مضمونها. والله سبحانه وتعالى أسأل أن يجعله هديةً متقبلةً للإسلام نافعةً للمسلمين، إنه أكرم مسؤول وأسرع من يجيب، ببركة سيدنا ومولانا الحبيب محمد صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم.

المطلب الأول

السؤال في نصوص القرآن والسنة

أمرنا الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم بالنظر والفكر، والآيات الدالة على هذا المعنى عديدة، كما أن الآيات الدالة على فضل التأمل والتدبر كثيرة. ولا يخفى أن الأمر بالنظر أمرٌ بالبحث، والبحث لا يخلو من السؤال، بل السؤال هو عماد البحث وركنه. فأمر الله سبحانه بالنظر في قوله تعالى: ﴿ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ﴾ [العنكبوت: ٢٠] هو أمرٌ بالسؤال عن نشأة الخلق وبداية الكون. وجاء الحث أيضًا على السؤال والدلالة على فضله في قصة الملائكة التي جاءت في قوله عز وجل: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [البقرة: ٣٠]. فاستفاد الإمام فخر الدين الرازي أن «قصة سؤال الملائكة عن الحكمة في تخليق البشر يدل على أن الحكمة الأصلية في تخليق آدم هو المعرفة والطاعة لا الجهل والتكبر»[1]. وزيادة على ذلك فإن السؤال ولو في موضع لا يمكن السؤال فيه يفيد الترغيب في النظر والاستدلال كما في قوله تعالى: ﴿ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴾ [الزخرف: ٤٥]. قال الإمام فخر الدين الرازي: «ذكر السؤال في موضع لا يمكن السؤال فيه يكون المراد منه النظر والاستدلال، كقول من قال: سل الأرض من شق أنهارك،

(١) انظر: «مفاتيح الغيب» (٢٦/ ٢٢٧).

وغرس أشجارك، وجنى ثمارك، فإنها إن لم تجبك جوابًا أجابتك اعتبارًا، فههنا سؤال النبي ﷺ الأنبياء الذين كانوا قبله ممتنع، فكان المراد منه انظر في هذه المسألة بعقلك وتدبر فيها بفهمك»[1]. ومما يدل أيضًا على فضل السؤال في القرآن الكريم أن «القلب في الحياة الدنيا لا ينفك عن الأفكار المستعقبة للشبهات»[2] والسؤال وطلب الاستدلال من أهم وسائل إزالتها؛ وقد وقعت الإشارة إلى ذلك في قول الله تبارك وتعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ ﴾[البقرة: ٢٦٠].

إلى جانب ما مر، فإن السؤال من أساليب التعليم الأساسية في القرآن الكريم. قال العلامة ابن عاشور في قوله سبحانه: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ [يونس: ٣١]: «وجاء الاستدلال بطريق الاستفهام والجواب لأن ذلك في صورة الحوار، فيكون الدليل الحاصل به أوقع في نفوس السامعين، ولذلك كان من طرق التعليم مما يراد رسوخه من القواعد العلمية أن يؤتى به في صورة السؤال والجواب». وقد شملت السؤالات الواردة في القرآن الكريم أمور الدين والدنيا. فجاء السؤال في الغيبيات: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ﴾ [الأعراف: ١٨٧]، وعن الروح: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ﴾ [الإسراء: ٨٥]؛ وجاء في الظواهر الكونية: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ ﴾[طه: ١٠٥] و﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ﴾ [البقرة: ١٨٩]؛ وجاء في مسائل

(١) انظر: المصدر السابق (٢٧/ ٢١٧).

(٢) انظر: المصدر السابق (٣/ ١١).

المعاملات والسياسات: ﴿يَسْأَلونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ﴾ [البقرة: ٢١٥] و﴿يَسْئَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢١٧]؛ وجاء في بعض الشؤون الحياتية: ﴿يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ﴾ [البقرة: ٢١٩] و﴿وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ﴾ [البقرة: ٢٢٢]؛ وجاء السؤال في شأن فئة من فئات المجتمع: ﴿وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى﴾ [البقرة: ٢٢٠]؛ وجاء في أحوال السابقين: ﴿وَيَسْئَلُونَكَ عَن ذِى الْقَرْنَيْنِ﴾ [الكهف: ٨٣].

وللأسف يجنح البعض إلى اعتقاد، بل ترويج، ما يخالف مقتضى هذه النصوص العديدة من الدعوة إلى السؤال والحث عليه، ويزعم خطأً أن السؤال في الغيبيات أو الإلهيات أو القضايا الوجودية ممنوع بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾ [المائدة: ١٠١].

وصاحب هذا الزعم ليس له في هذه الآية الكريمة ما يعضد دعواه ولا يؤيد ما ذهب إليه؛ ففي «صحيح البخاري»[1] بالإسناد إلى سيدنا عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: «كان قومٌ يسألون رسولَ الله ﷺ استهزاءً، فيقول الرجل: مَن أبي؟ ويقول الرجل تضلُّ ناقتُه: أين ناقتي؟ فأنزَل الله فيهم هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ﴾ [المائدة: ١٠١] حتى فرغ من الآيةِ كلها». فالجهة - كما ترى- منفكة بين مدلول الآية الكريمة وما يروم بعض الفئات إثباته.

وكما أمر كتاب الله العزيز بالبحث والنظر بواسطة السؤال، فقد أرشد النبي ﷺ

(١) انظر: (٦/ ٥٤) رقم: (٤٦٢٢).

إلى فضله وعلَّمه أصحابه رضي الله عنهم، فقد تعددت نصوص السنة النبوية المشرفة الدالة على هذا المعنى، ولا أراه مجازفًا من يدعي ثبوته بالتواتر المعنوي. فقد تعلمنا أركان الإسلام وأصول الإيمان بحديث سيدنا جبريل عليه السلام في صورة سؤال وجواب. وعرَّف النبي ﷺ صفة المسلم بسؤال كما في الحديث عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال «إنَّ من الشجر شجرة لا يسقط ورقها، وإنها مثل المسلم، فحدثوني ما هي؟». فوقع الناس في شجر البوادي. قال سيدنا عبد الله: ووقع في نفسي أنها النخلة، فاستحييت، ثم قالوا :حدثنا ما هي يا رسول الله؟ فقال: «**هي النخلة**»[1].

وعنوَن الإمام البخاري لهذا الحديث بقوله «باب: طرح الإمام المسألةَ على أصحابه ليختبر ما عندهم من العلم»[2]، كما استدل به الحافظ ابن السني في «رياضة المتعلمين»[3] على أنه «يستحب للعالم أن يمتحن التلامذة بالمسائل الفكرية». وبالإضافة إلى ما مَر، فقد جعل النبي ﷺ الجهل داءًا وجعل دواءه السؤال فقال ﷺ: «**ألا سألوا إذْ لم يعلموا فإنما شفاءُ العِيِّ السؤالُ**»[4]، والإنسان واجب عليه رفع الجهل عن نفسه، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

فهذه النصوص وغيرها دالة على المكانة العالية التي يحتلها السؤال في سنة النبي ﷺ

---

(١) متفقٌ عليه. رواه البخاري في «صحيحه» (١/ ٢٢) رقم: (٦٢)، ومسلم في «صحيحه» (٤/ ٢١٦٤) رقم: (٢٨١١).

(٢) انظر: «صحيح البخاري» (١/ ٢٢).

(٣) انظر: (ص١٣٨).

(٤) رواه أبو داود في «السنن» (١/ ٣١٦) رقم: (٣٤٠).

المطهرة، ولكن كما حدث مع كتاب الله العزيز مِن ترك البعض للآيات العديدة الصريحة الداعية إلى السؤال والبحث والفكر لأجل إثبات أن السؤال في الإلهيات مذموم شرعًا اعتمادًا على فهم مغلوط لنص أو نصوص أخرى، فكذلك وقع مع السنة النبوية الشريفة. فقد زعم بعض الناس أن النبي ﷺ حرَّم السؤال في الإلهيات ظنًا منهم أن في ذلك صيانةً للشريعة، وزعم آخرون أن الإيمان الذي دعا إليه المصطفى ﷺ هو إيمان أعمى – وحاشاه صلوات الله عليه – لا يفسح المجال للفكر والنظر العقلي. ومما حاولوا به تأسيس زعمهم حديث «**إن الله كَرِهَ لكم ثلاثًا: قيلَ وقال، وكثرةَ السؤال، وإضاعةَ المال**»[1].

وهو لا دلالة فيه على ما قصدوا إلى إثباته، لأنه ليس المقصود من كثرة السؤال النهم في طلب العلم والاجتهاد في البحث عن المعرفة وإعمال العقل في التأمل والتفكر، وهذا يظهره نصُّ الحديث ذاته؛ فإن النبي ﷺ قرَن بين ثلاثة أفعالٍ مكروهة عند الله سبحانه وتعالى، أحدها: القيل والقال، وهو التكلم فيما لا يعني وإذاعة أخبار الناس بلا تثبت وبلا تحفظ، وثالثها: إضاعة المال، وهو التبذير وإنفاق المال في وجوه غير مأذونةٍ شرعًا ولا يترتب عليها مصلحة دينية أو دنيوية. وثانيها – وهو محل الشاهد من الحديث – كثرة السؤال، ولا يمكن أن يكون المراد به شدة البحث وكثرة التفكر والتأمل المفضية بصاحبها إلى تتابع الأسئلة لأجل تحصيل الفهم والمعرفة. وعليه، فإن المراد بها هو الإسراف في سؤال الناس، سواء كان المسؤول عنه أمرًا ماديًا، كطلب المال أو الطعام، أو

(١) متفقٌ عليه. رواه الإمام البخاري في «صحيحه» (٢/ ١٢٤) رقم: (١٤٧٧)، والإمام مسلم في «صحيحه» (٣/ ١٣٤١) رقم: (٥٩٣).

أمرًا معنويًا، كطلب معرفة شؤون الناس الخاصة أو السؤال على سبيل المغالطة لتعجيز السائل أو السؤال عما لا نفع فيه[1].

وهذا ما قرره شراح الحديث كالحافظ ابن حجر العسقلاني[2] والإمام محيي الدين النووي[3] وغيرهما[4] من أن كل ما دل الشرع والأدب على ذمِّ السؤال عنه والمنع من طلبه فهو داخل في هذا الحديث. ويؤيد ما ذهبنا إليه الحديث الذي رواه سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه قال: خطبنا رسول الله ﷺ فقال: «**أيها الناس قد فرض الله عليكم الحج فحجُّوا**»، فقال رجل: أكلَّ عامٍ يا رسول الله؟ فسكت حتى قالها ثلاثًا، فقال رسول الله ﷺ: «**لو قلتُ نعم لوجبت، ولَمَا استطعتم**»، ثم قال: «**ذروني ما تركتكم، فإنما هلك مَن كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما**

---

(١) قال العارف بالله ابن عجيبة رضي الله عنه (ت ١٢٢٤هـ) في تفسير قول الله تعالى: ﴿وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ١٨٩]: «ليس البر بأن تعكسوا مسائلكم بأن تسألوا عما لا نفع لكم فيه، وتتركوا مسائل العلم التي تنفعكم في العاجل والآجل. وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقى ذلك، وَأْتُوا بيوت العلم من أبوابها، فتُحسنون السؤال وتتأدبون في المقال، وتقدمون الأهم فالأهم، والأنفع فالأنفع» انتهى؛ انظر: «البحر المديد في تفسير القرآن المجيد» (١/ ٢٢١).

(٢) انظر: «فتح الباري شرح صحيح البخاري» (١٠/ ٤٠٧).

(٣) انظر: «المنهاج شرح صحيح مسلم بن حجاج» (١٢/ ١١).

(٤) انظر: «المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم» للحافظ أبي العباس القرطبي (٥/ ١٦٤)؛ وراجع: «الجامع لأحكام القرآن» للإمام أبي عبد الله القرطبي (٨/ ٢٣٣).

استطعتم، وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه»[1].

والمقصود بقوله ﷺ «بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم» ما فعله قوم سيدنا موسى عليه السلام من التعنت في السؤال عن البقرة التي أمروا بذبحها. فدل كل ذلك على أنه لا سبيل إلى الاحتجاج بالنهي عن «كثرة السؤال» على أن السؤال من حيث هو سؤال ممنوع، أو أن الأسئلة الوجودية ممنوعة. وسواء أراد صاحب هذه الدعوى حفظ الدين ورعايته، أو أراد إثبات أن الدين لا يسمح بالبحث العقلي في أصول الإيمان ومسائل العقائد، فإنه لا تقوم له بهذا الحديث حجةٌ على زعمه؛ والله تعالى أعلم.

ويدعي البعض زورًا أن النبي ﷺ منع من التفكر والسؤال في الإلهيات، ويستدل على دعواه المتهافتة بالحديث الذي رواه الإمامان البخاري ومسلم في «صحيحيهما»[2] عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**يأتي الشيطان أحدكم فيقول: من خلق كذا؟ من خلق كذا؟ حتى يقول: من خلق ربك؟ فإذا بلغه فليستعذ بالله ولينته**». **وفي رواية عند الإمام مسلم: «فمَن وجد من ذلك شيئًا فليقل آمنت بالله»**[3]. فيزعم صاحب هذه الدعوى أن النبي ﷺ حرَّم السؤال عن الله! حاشاه صلوات الله وسلامه عليه، لأن الحديث ليس معناه أن السؤال عن ربنا سبحانه وتعالى ممنوع شرعًا، ولكن

(١) رواه الإمام مسلم في «صحيحه» (٢/ ٩٧٥) رقم: (١٣٣٧).

(٢) انظر: «صحيح البخاري» (٤/ ١٢٣) رقم: (٣٢٧٦)، و«صحيح مسلم» (١/ ١٢٠) رقم: (١٣٤).

(٣) انظر: «صحيح مسلم» (١/ ١١٩) رقم: (١٣٤).

لبيان أن الأسئلة – مثل الأجوبة – تخضع لمعايير الخطأ والصواب[1].

فسؤال «مَن خلق ربك؟» أو «مَن خلق الله؟» متناقض في ذاته، لأن الخلق هو الإيجاد من العدم، و«الله» علَمٌ على الذات واجب الوجود، وواجب الوجود وجوده من ذاته، لم يسبقه عدم ولا يلحقه عدم، لا يفتقر إلى غيره ويتفقر إليه كل مَن سواه. فأي استفادة يتحصل عليها الإنسان إذا ظل يكرر السؤال التالي في ذهنه: من الذي أوجد من العدم غير المسبوق بعدم؟! أو: إلى من يحتاج غير المحتاج لأحد؟! أو: متى كانت بداية مَن لا بداية له؟! فلما كان هذا السؤال متناقضًا تناقضًا ذاتيًا لم يكن سبيل التخلص من تكراره بالفكر فيه، لأنه ظاهر البطلان، وإنما بالذكر، وهو الاستعاذة. وهنا فائدة ينبغي التنبيه إليها وهي أن هذا الحديث أسس لقاعدة ذكرها العارف بالله الشيخ أحمد زروق في كتابه «إعانة المتوجه المسكين إلى طريق الفتح والتمكين»[2] وهي أن الوسواس يدفع بالذكر لا بالفكر. فإن تكرار الفكر في السؤال الغلط لا يفيد، بل كلما حاول الإنسان دفعه بالفكر كلما عاد وتكرر، فالانشغال عنه بالذكر هو العلاج الأمثل.

---

(١) ومن أجل تعليم هذا المبدأ وترسيخه جاء السؤال في القرآن الكريم ليسأل عن السؤال نفسه! فإن من أوائل الآيات التي ورد فيها ذكرُ السؤال قوله سبحانه وتعالى سورة النبأ: ﴿عمّ يتساءلُون﴾ [النبأ: ١]. والسبب فيه أن كفار قريش لم يؤمنوا بيوم القيامة، ومع ذلك سألوا عنه، فكان من الضروري سؤالهم عن فائدة سؤالهم. ونحو هذا ما جاء في الحديث الشريف المتفق عليه أن رجلًا جاء النبي ﷺ فسأل: متى الساعة؟ فقال النبي ﷺ: «وماذا أعددتَ لها؟». وآداب السؤال وكيفيته من القضايا الضرورية التي نحتاجها في واقعنا المعاصر وقد اعتنى علماء التراث ببيانها.

(٢) قال رضي الله عنه (ص٥٨): «مقابلة الخاطر بردِّه توجبُ تمكينُه دون صدِّه».

فإن قيل: ولكن النبي ﷺ نهى عن التفكر في الله كما في الحديث الذي رواه الإمام الطبراني: «**تفكروا في آلاء الله، ولا تتفكروا في الله**»[1] وهذا يؤيد ما فهمنا للحديث السابق.

قلنا: المراد بالنهي عن التفكر في الله هو التفكر في كنه ذاته سبحانه وتعالى، وأما التفكر في صفاته وأفعاله فهو غير ممنوع، وقد وقع لعدد من الصحابة رضوان الله عليه وسلم السؤال عن صفات الله وأفعاله كما سيأتي بيانه في المطلب الثاني. ولذا فإن علماء أهل السنة تكلموا في أحكام الصفات الإلهية، وآثارها، ومتعلقاتها، ولوازمها، ومقتضياتها، إلى غير ذلك من مسائل تفصيلية في الإلهيات، ولكن توقفوا – كما توقف الفلاسفة أيضًا[2] – عن الخوض في ذاته العلية. ومن هنا قال الإمام فخر الدين الرازي في تفسير قول الله عز وجل: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَا تُغۡنِي ٱلۡأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١]: «لا سبيل إلى معرفة الله إلا بالتدبر في الدلائل».

ومما يؤيد فهمنا للحديث أن الإمام الطحاوي مثلًا في «عقيدته»[3] التي روى فيها عقيدة الإمام أبي حنيفة وأصحابه قد جمع بين الأمرين، يعني ذكر صفاته وأفعاله سبحانه وتعالى وتوقف عن الخوض في ذاته عز وجل، فقال: «قديم بلا ابتداء، دائم بلا انتهاء، لا

---

(١) انظر: «المعجم الوسيط» (٦/ ٢٥٠) رقم: (٦٣١٩).

(٢) انظر على سبيل المثال: «التعليقات» للشيخ الرئيس أبي علي ابن سينا (ص٢١٩)؛ وراجع: «خلاصة شروح الجوهرة» المسمى «الفريدة في العقيدة» للعلامة الشيخ محمد ماضي الرخاوي (ص٢٥).

(٣) انظر: «شرح العقيدة الطحاوية» للعلامة الفقيه عبد الغني الغنيمي الميداني (ص٢٥).

يفنىٰ ولا يبيد، ولا يكون إلا ما يريد»، فبيَّن أنه سبحانه وتعالىٰ واجب الوجود، وأن له صفات القِدَم والبقاء والإرادة، ثم قال بعد ذلك: «لا تبلغه الأوهام، ولا تدركه الأفهام، ولا يشبه الأنام» ليفيد أن التفكر في ذاته تعالىٰ لا يتأتىٰ للبشر.

فظهر لنا بهذا البيان أن الزعمَ بأن السنة النبوية الشريفة قررت منع السؤال في الإلهيات أو القضايا الوجودية زعمٌ لا أساس له ولا معول عليه، بل هو قول موغل في الغلط ومخالف لما استقر عليه العمل عند السلف والخلف كما سيأتي بيانه إن شاء الله تعالىٰ؛ والله الهادي لا رب سواه.

المطلب الثاني
موقف السلف الصالح من السؤال

الأصل عند الصحابة والتابعين رضي الله عنهم مدح السؤال والترغيب فيه والثناء على أهله واستعماله في طلب العلم. من الأدلة على ذلك قول السيدة عائشة رضي الله عنها: «نِعْمَ النساءُ نساءُ الأنصارِ لم يَمْنَعْهُنَّ الحياءُ أن يَتَفَقَّهْنَ في الدين»[1]. فإن كلمة «نِعْمَ» من أفعال المدح. فالسيدة عائشة رضي الله عنها إنما مدحت نساء الأنصار – والمراد نساء أهل المدينة – بعدم الاستحياء من السؤال. والإمام البخاري رحمه الله الذي روى هذا النصَّ في «صحيحه» اعتمد عليه في بيان أن الحياء المانع من طلب العلم مذمومٌ، كما قال الإمام ابن بطَّال المالكي رحمه الله (ت ٤٤٩هـ) في «شرح صحيح البخاري»[2]. والإمام البغوي الملقب بـ«محيي السنة» (ت ٥١٦هـ) استدل بقول السيدة عائشة رضي الله عنها المذكور على استثناء الحياء في التعلم والسؤال من قول النبي صلى الله عليه وسلم: «الحياء لا يأتي إلا بخير»[3]، فقال عقبه: «أما الحياء في التعلم والبحث عن أمر الدين فمذموم؛ قالت عائشة: نِعْمَ النساءُ نساءُ الأنصارِ لم يَمْنَعْهُنَّ الحياءُ أن يَتَفَقَّهْنَ في الدين»[4].

---

(١) انظر: «صحيح البخاري» (١/ ٣٨).

(٢) انظر: (١/ ٢١٠).

(٣) متفقٌ عليه. رواه الإمام البخاري في «صحيحه» (٨/ ٢٩) رقم: (٦١١٧)، والإمام مسلم في «صحيحه» (١/ ٦٤) رقم: (٣٧).

(٤) انظر: «شرح السنة» (١٣/ ١٧٣).

ومن الأدلة أيضًا قول سيدنا عبد الله بن عباسٍ رضي الله عنهما حيمنا سئل: كيف أصبت هذا العلم؟ فقال: «بلسان سؤول وقلب عقول»[1]. والمراد بقوله «سؤول»: أي كثير السؤال. وأضاف رضي الله عنه كثرة السؤال إلى اللسان ليفيد أنه لم يحتفظ بالسؤال في نفسه، وإنما توسَّل به لتحصيل ما عند غيره من المعارف والفهوم. وهذه المَلَكة اكتسبها منه تلميذه الإمام مجاهد رحمه الله وعبر عنها بقوله: «لا يتعلمُ العلمَ مستحٍ ولا مستكبرٌ»[2].

وسأل الصحابة رضي الله عنهم النبي ﷺ في أصول الدين. فمنهم مَن سأل عن أصل الوجود كما في الحديث الذي رواه الإمام البخاري عن عمران بن حصين، قال: إني عند النبي ﷺ إذ جاءه قوم من بني تميم، فقال: «**اقبلوا البشرى يا بني تميم**»، **قالوا: بشرتنا فأعطنا، فدخل ناس من أهل اليمن**، فقال: «**اقبلوا البشرى يا أهل اليمن، إذ لم يقبلها بنو تميم**»، قالوا: «**قبلنا، جئناك لنتفقه في الدين، ولنسألك عن أول هذا الأمر ما كان؟** قال: «**كان اللهُ ولم يكنْ شيء قبله، وكان عرشه على الماء، ثم خلق السماوات والأرض، وكتب في الذكر كل شيء**». وأذكر أني لما درست هذا الحديث مع شيخ لي من الهند قال: «هذا أول سؤال ميتافيزيقيٍّ في الإسلام»، يقصد أنهم رضي الله عنهم فتحوا باب الأسئلة الميتافيزيقية لكل مَن جاء بعدهم.

ومِن الصحابة مَن سأل عن صفات الله عز وجل. ففي «مسند الإمام أحمد»[3]

(١) انظر: «فضائل الصحابة» للإمام أحمد بن حنبل (٢/ ٩٧٠).

(٢) انظر: «صحيح البخاري» (١/ ٣٨).

(٣) انظر: (٦/ ٥٧٤) رقم: (١٦٤٣٨).

و«سنن الترمذي»[1] عن سيدنا أبي رزين رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله، أين كان ربنا عز وجل قبل أن يخلق خلقه؟ فقال ﷺ: «**كان في عماء**[2] **ما تحته هواء، وما فوقه هواء، ثم خلق عرشه على الماء**». فهذا سؤال عن صفة الخالق سبحانه وتعالى، وعليه يقاس السؤال عن أي أمر آخر من الأمور الغيبية.

ومنهم رضي الله عنهم مَن سأل في القضاء والقدر، كسيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه الذي قال: لما نزلت هذه الآية ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ [هود: ١٠٥] سألتُ رسولَ الله ﷺ فقلت: يا نبي الله، فعلى ما نعمل؟ على شيء قد فرغ منه، أو على شيء لم يفرغ منه؟ قال: «**بل على شيء قد فرغ منه وجرت به الأقلام يا عمر، ولكن كل ميسر لما خلق له**». وهذا سؤال من سيدنا عمر بن الخطاب في الحكمة من الحساب الأخروي في ضوء ما فهمه من الآية الكريمة عن القضاء والقدر.

وهنا ينبغي أن نتعرض إلى رواية يتوهم البعض أن مدلولها المنع من السؤال في الإلهيات والقضايا الوجودية، إما استسهالًا لأنه لا يقوى على الجواب أو لا يريد أن يتنكب عناء البحث، وإما تحيزًا إلى صورة خاطئة تكوَّنت لديه حول موقف الدين من السؤال، ألا وهي ما فعله سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه بصبيغ بن عسل، المعروف بـ«ضبيغ التميمي» أو «صبيغ العراقي». ووقائع هذه القصة كما في «سنن الدارمي»[3] أن

(١) انظر: (٥/ ١٣٩) رقم: (٣١٠٩).

(٢) أي: ليس معه شيء.

(٣) انظر: (١/ ٢٥٤) رقم: (١٥٠).

صبيغًا العراقي جعل يسأل عن أشياء من القرآن في أجناد المسلمين حتى قدم مصر، فبعث به عمرو بن العاص رضي الله عنه إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه فلما أتاه الرسول بالكتاب فقرأه فقال: أين الرجل؟ فقال: في الرحل، قال عمر: أبصر أن يكون ذهب فتصيبك مني به العقوبة الموجعة، فأتاه به، فقال عمر: تسأل محدثةً؟ فأرسل عمر إلى رطائب من جريد، فضربه بها حتى ترك ظهره دَبَرةً[1]، ثم تركه حتى برأ، ثم عاد له، ثم تركه حتى برأ، فدعا به ليعود له، فقال صبيغ: إن كنت تريد قتلي فاقتلني قتلًا جميلًا، وإن كنت تريد أن تداويني فقد والله برأت، فأذن له إلى أرضه، وكتب إلى أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن لا يجالسه أحد من المسلمين، فاشتد ذلك على الرجل، فكتب أبو موسى إلى عمر أن قد حسنت توبته، فكتب عمر أن ائذن للناس بمجالسته.

يقفز كثير من الناس مباشرةً إلى عقاب سيدنا عمر بن الخطاب لصبيغ، فيتحير البعض لماذا أمر سيدنا عمر رضي الله عنه بجلده؟ هل السؤال عن تفسير آيات من القرآن يستوجب العقوبة؟! والبعض الآخر يسلط الضوء على أمر العقوبة مستدلًا به على ما يتوهمه من أن السؤال في الإسلام ممنوع وأن أبوابه موصدة دون البحث والتفكر. ولكن لو تأمل القارئ القصة ونظر في أولها لوجد أن صبيغًا لم يتوجه بسؤاله إلى أحد من الصحابة فضلًا عن علمائهم ومفسريهم، وإنما سعى في نشر سؤالاته عن متشابه القرآن بين جنود المسلمين مما يدل على تعمد التشكيك، ولا يستبعد أن يكون وقع بسبب ذلك

(١) الدبرة: الجرح والقرحة التي تكون في ظهر الدابة، والمعنى أنه ترك ظهره مجروحًا من شدة الجلد بالجريد.

ضرر أصاب الحالة المعنوية للجيش، ولذا أرسل سيدنا عمرو بن العاص رضي الله عنه في شأنه إلى سيدنا عمر. ولو كانت الثقافة المعهودة عند الصحابة والقاعدة المستقرة لديهم هي المنع من السؤال أيًّا ما كان لما ترك صبيغ هذه المدة يذيع تساؤلاته في أوساط الجنود. والواقع أنه أحيل أمره إلى سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه لينظر فيه. وعليه، فلم تكن العقوبة الموقعة عليه بسبب أنه سأل عن معنى آية، ولو كانت من الآيات المتشابهة، وإنما سبب العقوبة أنه ابتغى بسؤاله حدوث فتنة، ولم تكن الفتنة التي كاد أن يتسبب فيها فتنةً في مسجد في قرية من القرى، وإنما بين صفوف الجيش، وهذا أمر خطير إذا استشرى أثره قد تترتب عليه خسائر مادية جسيمة في الأرواح والممتلكات.

ومما يؤكد ما فهمناه من هذه القصة أن الحافظ ابن بطة العكبري (ت ٣٨٧هـ) في «الإبانة الكبرى»[1] رواها تحت باب جعل عنوانه هكذا: «باب ترك السؤال عما لا يغني والبحث والتنقير عما لا يضر جهله، والتحذير من قوم يتعمقون في المسائل ويتعمَّدون إدخال الشكوك على المسلمين». ونلحظ هنا أن ابن بطة العكبري إنما جعل التحذير من تعمُّد إدخال الشكوك، وهو يدل – بمفهوم المخالفة – أن إدخال الشكوك بدون تعمد لا يدخل تحت طائلة التحذير، وإلا لأغلق باب السؤال جملةً، ولامتنع كل مَن له سؤال حقيقي أن يطرح مسألته خشية أن يتسلل جراء ذلك الشكُّ إلى قلب أحد من المسلمين.

ومما يؤيده أيضًا ما قاله الفقيه الحنبلي أبو بكر الخلال (ت ٣١١هـ) في كتاب

(١) انظر: (١/ ٣٩٠).

«السنة»[1]: «ولو شاء عمر بن الخطاب أن يناظر صبيغًا، ويجمع له أصحاب رسول الله ﷺ حتى يناظروه ويحاجوه ويبينوا عليه لفعل، ولكنه قمع جهله...». والمقصود أن سيدنا عمر رضي الله عنه إنما لم يناظر صبيغًا ولم يجمع له الصحابة حتى يناظروه ويظهروا له معنى ما يسأل عنه، لأن صبيغًا لم يقصد السؤال والبحث، بل لم يقصد المناظرة والحجاج، وإنما سعى في التشكيك. والمقصود من قول الخلال «ولكنه قمع جهله» أن سيدنا عمر أراد بهذه العقوبة إخماد تعديه وإساءته، فالجهل هنا التعدي، كما في الحديث الشريف الذي رواه الإمام أحمد في «المسند»[2] عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إذا كان يوم يصومه أحدكم فلا يرفث ولا يجهل، فإن جُهل عليه فليقل إني امرؤ صائم». وخلاصة ما قرره الخلال في كلامه المذكور أن سيدنا عمر رضي الله عنه وزن فعله بموازين السياسة الشرعية في عصره وجعل عقوبته موازية للضرر الذي سعى فيه ورادعةً لمن تسول له نفسه تكرار فعله.

وقد يضاف إلى ما سبق أمر آخر، وهو أن سيدنا عمر رضي الله عنه إنما اتخذ في حق صبيغ هذه العقوبة الشديدة لأنه أدرك زمن النبوة كما حكى الحافظ ابن حجر في «الإصابة»[3]، فكان التصرف من سيدنا عمر بالنظر إلى عظم الضرر المترتب على فعله، فلعله خشي رضي الله عنه أن يتأثر بشأنه المسلمون الجدد فيصوَّر الدين في أذهانهم على

(١) انظر: (١/ ٢٢٣).

(٢) انظر: (٤/ ٦٩٥) رقم: (١٠٢٧٣).

(٣) انظر: (٣/ ٣٧٠).

غير ما هو عليه، وهذا جناية في حق الإسلام[1]. وبالجملة، فإن العقوبة التي وقعت على صبيغ – بحسب موازين السياسة الشرعية والعقوبات التعزيرية المتعارف عليها في زمانهم كما أسلفنا – كانت بإزاء جريمة مركبة من محاولة زعزعة عقيدة جيش المسلمين، والسعي في تشكيك العوام وحديثي الإسلام، وإثارة الفتنة، وعدم احترام العلم والعلماء، وتكرار هذه الإساءات والإصرار عليها.

ولا ندع هذا المقام دون أن ننبه إلى أمر مهم، وهو أنه لما قامت فتنة الحرورية[2] في عهد سيدنا علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، فقيل لصبيغ: إنه قد خرج قوم يقولون كذا وكذا، فقال: «هيهات! قد نفعني الله بموعظة الرجل الصالح». وهذه الرواية أخرجها عبد الرزاق في «مصنَّفه»[3] وأردف بها الرواية الموقوفة على سيدنا عبد الله بن عمر رضي الله عنهما التي جاء فيها: « ومن أعان على خصم دون حق أو بما لا يعلم كان في سخط الله حتى ينزع»[4]. فكأن الحافظ عبد الرزاق أراد أن صبيغًا امتنع عن الانضمام إلى فتنة الخوارج واجتنبها لأجل عقوبة سيدنا عمر رضي الله عنه التي سماها «موعظة»، وهو أمر يستحق التأمل الكثير. فإنه قد ورد أنه لما دخل صبيغ على سيدنا عمر سأله عن معنى

(١) لقَّب الفقيه الحنفي شهاب الدين فضل الله بن الحسن التوربشتي (ت ٦٦١هـ) رحمه الله مَن يُحْدِث بدعة في الدين بـ«الجاني على الإسلام». انظر: «الميسر في شرح مصابيح السنة» (٣/ ٩٣٦).

(٢) فرقة من فرق الخوارج، وتسمى الحرورية نسبةً إلى حروراء وهي قرية من قرى الكوفة، ونُسبوا إليها لأنها كانت مركز خروجهم.

(٣)انظر: (١١/ ٤٢٦) رقم: (٢٠٩٠٧).

(٤) انظر: «المصنف» للحافظ عبد الرزاق الصنعاني (١١/ ٤٢٥-٤٢٦) رقم: (٢٠٩٠٥).

الآيات المتشابهة، فقال له سيدنا عمر: «ضع عن رأسك» فوضع عن رأسه فإذا له وفيرة، فقال له سيدنا عمر: «لو وجدتك محلوقًا لضربت الذي فيه عيناك»[1]. أي: أن سيدنا عمر رضي الله عنه لِما بلغه من أمره الذي كان ظنَّ أنه من الخوارج، وكان قد علم من النبي صلى الله عليه وسلم أن من سيماهم تحليق رؤوسهم، فكشف عن رأسه لأجل هذا. فيفهم من هذا أن صبيغًا سمَّى عقوبة سيدنا عمر رضي الله عنه له موعظةً لأنها حفظته من فتنة الخوارج.

ولعله يفيد هاهنا أن نعرض ما قاله الحافظ ابن بطة العكبرى في «الإبانة الكبرى»(٢) في تحليل هذا الأمر وشرحه. قال رحمه: «وعسى الضعيف القلب القليل العلم من الناس إذا سمع هذا الخبر، وما فيه من صنيع عمر رضي الله عنه، أن يتداخله من ذلك ما لا يعرف وجه المخرج عنه، فيكثر هذا من فعل الإمام الهادي العاقل رحمة الله عليه، فيقول: كان جزاء من سأل عن معاني آيات من كتاب الله عز وجل أحب أن يعلم تأويلها أن يوجع ضربًا، وينفى، ويهجر، ويشهر! وليس الأمر كما يظن من لا علم عنده، ولكن الوجه فيه غير ما ذهب إليه الذاهب، وذلك أن الناس كانوا يهاجرون إلى النبي صلى الله عليه وسلم في حياته، ويفدون إلى خلفائه من بعد وفاته رحمة الله عليهم ليتفقهوا

---

(١) انظر: «الإبانة الكبرى» لابن بطة العكبري (١/ ٤١٤).

(٢) ومما يؤكد هذا أن ابن يونس الصدفي (ت٣٤٧هـ) في «تاريخ مصر»* ذكر صبيغًا في ترجمة عبد الرحمن بن ملجم المرادي، الذي قتل سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فقال: «ويقال: هو - أي ابن ملجم - الذي أرسل صبيغًا التميمي إلى عمر، فسأله عمّا سأله من مستعجم القرآن» انتهى. انظر: (١/ ٤١٥-٤١٧).

في دينهم، ويزدادوا بصيرةً في إيمانهم، ويتعلموا علم الفرائض التي فرضها الله عليهم، فلما بلغ عمر رحمه الله قدوم هذا الرجل المدينة، وعرف أنه سأل عن متشابه القرآن، وعن غير ما يلزمه طلبه مما لا يضره جهله، ولا يعود عليه نفعه، وإنما كان الواجب عليه حين وفد على إمامه أن يشتغل بعلم الفرائض، والواجبات، والتفقه في الدين من الحلال، والحرام، فلما بلغ عمر رحمه الله أن مسائله غير هذا علم من قبل أن يلقاه أنه رجل بطَّال القلب خالي الهمة عما افترضه الله عليه مصروف العناية إلى ما لا ينفعه، فلم يأمن عليه أن يشتغل بمتشابه القرآن، والتنقير عما لا يهتدي عقله إلى فهمه، فيزيغ قلبه، فيهلك، فأراد عمر رحمه الله أن يكسره عن ذلك، ويذله، ويشغله عن المعاودة إلى مثل ذلك.

فإن قلت: فإنه قال: لو وجدتك محلوقًا لضربت الذي فيه عيناك، فمن حلق رأسه يجب عليه ضرب العنق؟!

فإني أقول لك: من مثل هذا أتي الزائغون، وبمثل هذا بلي المنقرون الذين قصرت هممهم، وضاقت أعطانهم عن فهم أفعال الأئمة المهديين، والخلفاء الراشدين، فلم يحسوا بموضع العجز من أنفسهم، فنسبوا النقص والتقصير إلى سلفهم. وذلك أن عمر رضي الله عنه، قد كان سمع النبي ﷺ يقول: «يخرج قوم أحداث الأسنان، سفهاء الأحلام، يقولون من خير قول الناس، يقرأون القرآن لا يجاوز حناجرهم، يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية، من لقيهم فليقتلهم، فإن في قتلهم أجرًا عند الله»، وفي حديث آخر: «طوبى لمن قتلهم، وطوبى لمن قتلوه» قيل: يا رسول الله ما علامتهم؟

قال: «سيماهم التحليق». فلما سمع عمر رضي الله عنه مسائله فيما لا يعنيه كشف رأسه، لينظر هل يرىٰ العلامة التي قالها رسول الله ﷺ والصفة التي وصفها، فلما لم يجدها، أحسن أدبه، لئلا يتغالىٰ به في المسائل إلىٰ ما يضيق صدره عن فهمه، فيصير من أهل العلامة الذين أمر النبي ﷺ بقتلهم، فحقن دمه، وحفظ دينه بأدبه رحمة الله عليه ورضوانه، ولقد نفع الله صبيغًا بما كتب له عمر في نفيه، فلما خرجت الحرورية، قالوا لصبيغ: إنه قد خرج قوم يقولون كذا وكذا، فقال: هيهات، نفعني الله بموعظة الرجل الصالح، وكان عمر ضربه حتىٰ سالت الدماء علىٰ وجهه أو رجليه أو علىٰ عقبيه، ولقد صار صبيغ لمن بعده مثلًا، وتردعةً لمن نقر وألحف في السؤال». والمقصود بـ«ألحف في السؤال» أي ألح وبالغ في السؤال مع إرادة الفتنة وإشاعة الفوضى.

وهذا الداء نجده في «خوارج العصر»؛ فتجدهم يمتحنون إيمان الخلق بسؤالهم عن معنىٰ الاستواء في قوله تعالىٰ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه: ٥]، ويسألون رؤوسهم: هل فلان مبتدع؟ هل فلان كافر؟ فيشتغلون بهذه الأسئلة عن واجبات الدين والدنيا؛ والله سبحانه وتعالىٰ أعلىٰ وأعلم.

وبهذا البيان يظهر لنا المقصود من الكلام المروي عن الإمام الشافعي رضي الله عنه – وهو أيضًا مما يستدل به كثيرون علىٰ غير المراد منه – وهو قوله: «حكمي في أهل الكلام حكم عمر رضي الله عنه في صبيغ»[1]؛ فإن الإمام الشافعي إنما أراد بـ«أهل الكلام» كل مَن يسعىٰ في إدخال الشكوك علىٰ العوام ويفسد عليهم طريقة فهم الدين ويقلبها

(١) انظر: «تاريخ الإسلام» لشمس الدين الذهبي (٥/ ١٤٦).

رأسًا على عقب بأن يجعل النص المتشابه مكان المحكم والمحكم مكان المتشابه. والدليل على ذلك ما قاله الإمام البيهقي (ت ٤٥٨هـ) في «مناقب الشافعي»[١] وقد روى هذا النص وغيره: «وكانوا في القديم إنما يعرفون بالكلام أهل الأهواء». وأهل الأهواء تعبير يشمل كُل مَن قصد فهم الدين بهواه وطوَّع النصوص لخدمة أغراضه النفسية. وكل ما اطلعنا عليه من شأن أهل الأهواء في تاريخ الإسلام وما نراه ونسمعه من أهل الأهواء في أيامنا – كالجماعات المتطرفة والتنظيمات الإرهابية – يشهد بأن سوء فهمهم للدين لا يتوقف عند حد الجهل بل يتعدى إلى ظلم العباد وفتنة المجتمعات. ومن ثَم حكم عليهم الإمام الشافعي بالعقوبة التعزيرية المناسبة لزمانهم وبيئتهم. وليس مقصوده رضي الله عنه بـ«أهل الكلام» مَن أعمل عقله وفكره في نصوص الدين، كيف وقد خاض الإمام الشافعي نفسه في المباحث الكلامية؟![٢]

ومما ينبغي أيضًا أن نلفت النظر إليه استشهاد فئام من الناس على أن السؤال في الإلهيات والقضايا الوجودية بدعة بالقصة الشهيرة التي جاء فيها أن رجلًا سأل الإمام مالك رضي الله عنه عن معنى قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه: ٥] فوصف الإمام مالك سؤاله بـ«البدعة». ونص القصة كما جاء في كتاب «ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك»[٣] للقاضي عياض (ت ٥٤٤هـ) رحمه الله هكذا: «سأل رجل مالكًا،

(١) انظر: (١/ ٤٦٢).

(٢) انظر: «مناقب الشافعي» للبيهقي (١/ ٣٥٤-٨٥٤).

(٣) انظر: (٢/ ٣٩).

فقال: ﴿ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾، كيف استوىٰ يا أبا عبد الله؟ فسكت مالك مليًّا حتىٰ علاه الرحضاء وما رأينا مالكًا وجد من شيء وجده من مقالته، وجعل الناس ينتظرون ما يأمر به، ثم سري عنه فقال: الاستواء منه معلوم، والكيف منه غير معقول، والسؤال عن هذا بدعة، والإيمان به واجب، وإني لأظنك ضالًا أخرجوه عني».

فهذه القصة – كالرواية المنقولة آنفًا عن الإمام الشافعي رضي الله عنه – لا دلالة فيها علىٰ أن السؤال في الإلهيات بدعة، لأن الرجل سأل عن فعل من أفعال الله تعالىٰ – وهو الاستواء – بسؤال «كيف»، والكيف إما أن يحمل علىٰ معنىٰ الجسمية والتشخص وهذا منفي بذاته عن الله سبحانه وتعالىٰ، لأنه من مقتضيات الحدوث ودواعي الافتقار، والله عز وجل منزَّهٌ عن ذلك، وإما أن يحمل علىٰ معنىٰ كنه وحقيقة الصفة أو الفعل والعلم بهذا منفي عن العباد، لأن الله تعالىٰ استأثر بعمله. فعلىٰ التقدير الأول سؤاله بدعة، لأنه نشأ عن بدعة وهي اعتقاد أن الله يتصف بصفات الأجسام، تعالىٰ الله عن ذلك علوًّا كبيرًا. وعلىٰ التقدير الثاني سؤال بدعة، لأن سعي في إدراك ما تقرر بنصوص الشريعة وثبت بالعقل أنه لا مجال للعقل فيه. وظهر بذلك أنه علىٰ التقديرين لم يعتبر سؤاله بدعة لمجرد أنه سؤال عن الله عز وجل وصفاته، وإنما من حيث نشأ من بدعة أو اشتمل علىٰ بدعة؛ والله سبحانه وتعالىٰ أعلىٰ وأعلم.

ولا ندع هذا المقام دون التنبيه علىٰ أمرين مهمين في فهم قصة الإمام مالك رضي الله عنه. الأمر الأول: أن في زمان الإمام مالك نشأت طوائف من أهل البدع طلبت فهم الدين

بالتخاصم والجدل، أي جعلت وسيلة فهم الدين هي المناظرات التي مبناها التغالب لا تحقيق الحق والمدارسة، ومن ثَم لُقبوا بـ«أهل الأهواء». فإن بدعهم وإن نشأت عن سوء فهم للنصوص إلا أن أصله[1] الهوىٰ وحب الغلبة والرياسة. ففي «ترتيب المدارك»[2] للقاضي عياض رحمه الله: «قال معن [بن عيسىٰ]: انصرف مالك يومًا إلىٰ المسجد وهو متكىء علىٰ يدي فلحقه رجل يقال له ابو الجويرة يتهم بالأرجاء فقال يا أبا عبد الله اسمع مني شيئًا أعلمك به وأحاجك وأخبرك برأي. فقال: احذر أن اشهد عليك قال: والله ما أريد إلا الحق اسمع فإن كان صوابًا فقل إنه أو فتكلم. قال: فإن غلبتني. قال اتبعني. قال فإن غلبتك. قال أتبعك. قال: فإن جاء رجل فكلمناه فغلبنا. قال اتبعناه. فقال له مالك يا عبد الله بعث الله محمدًا بدين واحد وأراك تنتقل وقال عمر بن عبد العزيز من جعل دينه عرضًا للخصومات أكثر التنقل». فهذا هو المناخ الفكري الذي دارت فيه القصة الأول – أعني سؤال الرجل للإمام مالك عن كيفية الاستواء – وبدون إدارك أبعاده لا يتأتىٰ للباحث عن الحقيقة أن يفهم مراد الإمام مالك علىٰ وجهه. والأمر الثاني: أن الإمام مالك اشتغل بعلم الكلام ودرسه علىٰ أحد أشهر علمائه في العصور الأولىٰ، وهذا مما يخفىٰ علىٰ كثير من الناس، وبدون معرفته يسارع البعض في الاستشهاد بقصة الإمام مالك علىٰ منع السؤال في الإلهيات جملةً وتفصيلًا. وقد وضع ابن خمير السبتي (ت ٦١٤هـ) رحمه الله، وهو عالم أصولي مالكي، في كتابه «مقدمات المراشد إلىٰ علم

(١) أي: أصل سوء فهم النصوص.

(٢) انظر: (٢/ ٣٨-٣٩).

العقائد»[1] بابًا بعنوان: «باب الكلام في الرد على من عاب هذا العلم وطعن فيه من أهل التعصب بالجزاف» وذكر فيه أن «مالك رحمه الله، كان يختلف إلى ابن هرمز في تعلم علم الكلام خمس عشرة سنة، لكنه لم يصنِّف فيه». وعلم الكلام – كسائر العلوم – عماده السؤال والبحث والفكر. وهذا يؤيد ما ذكرناه آنفًا أن الإمام مالك رضي الله عنه لم يبدِّع سؤال الرجل من حيث هو سؤال عن الله تعالى، ولكن من حيث ما احتوى عليه سؤاله من البدعة كما بيَّنا. وسوف نبيِّن في بحث قادم بإذن الله تعالى عناية علماء أهل السنة بالأسئلة الوجودية والبحث في الإلهيات وتنافسهم العلمي في تلك الموضوعات الدقيقة والقضايا العويصة؛ والله الهادي لا رب سواه.

(١) انظر: (ص٨٢).

الخاتمة

قصدت في هذا البحث المختصر أن أطوف بالقارئ على أهم النصوص والرويات الدينية المتعلقة بالسؤال عمومًا وبالسؤال في الإلهيات والوجوديات خصوصًا. وبذلت وسعي في إزاحة الأوهام ورفع الإشكالات التي تنتشر في أوساط التطرف الديني والتطرف اللاديني على حد سواء، وبيَّنت أن كلاهما يأخذ من معين واحد وينظر بنظارة واحدة. وسعيت في إبراز أن شمولية الفهم وسعة الإدراك ومعرفة الأبعاد والتجرد عن الأغراض في البحث والنظر من الأمور الضرورية التي لا بد للباحث عن الحقيقة التحلي بها قبل الخوض في إبداء الرأي في أمثال هذه القضايا الشائكة. فما كان من صواب فمن الله الواحد المنَّان، وما كان من خطأ أو تقصير فمني ومن الشيطان، والله تبارك وتعالى ورسوله الكريم صلى الله عليه وسلم منه براء.

والمأمول بإذن الله تعالى أن يتبع هذا البحثَ بحثٌ آخر يتناول دور السؤال وقيمته عند علماء المسلمين حتى يظهر للمطالع كيف أنتج الفهم الصحيح للنصوص الدينية تراثًا مشرِّفًا احتفى بالسؤال واعتمد عليه ورغَّب فيه، وكيف كان السؤال ركنًا ركينًا في الحياة العلمية والثقافة الفكرية في العالم الإسلامي عبر مختلِف العصور.

وختامًا، أسأل الله تعالى أن يلقي لهذا البحث في القلوب القبول وأن يجعله في ميزان حسناتنا دون تشوِّف إلى جاه ولا سمعة ولا رئاسة. اللهم زدنا علمًا ونورًا وحلمًا وآتنا نعمة ظاهرة ونعمة باطنة، وانفعنا بما علمتنا، واجعله زكاةً وتزكيةً لنا،﴿ سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ

لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾؛ وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه وسلم أجمعين. والحمد لله رب العالمين.

قائمة المصادر والمراجع

الإبانة الكبرى، ابن بطة العكبري، تحقيق: رضا معطي، الطبعة الثانية ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م، دار الراية، الرياض – السعودية.

إعانة المتوجه المسكين إلى طريق الفتح والتمكين، العارف بالله أبو العباس أحمد زروق، تحقيق: الدكتور محمد عبد القادر نصار، الطبعة الأولى ٢٠١٥م، دار الإحسان للنشر والتوزيع، القاهرة – مصر.

السنة، أبو بكر الخلال، تحقيق: الدكتور عطية الزهراني، الطبعة الأولى، دار الراية، الرياض – السعودية.

البحر المديد في تفسير القرآن المجيد، العارف بالله أبو العباس أحمد بن محمد بن عجيبة، تحقيق: أحمد عبد الله القرشي رسلان، طبعة ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م، طبع على نفقة الدكتور حسن عباس زكي، القاهرة – مصر.

تاريخ الإسلام، الإمام شمس الدين الذهبي، تحقيق: الدكتور بشار عواد معروف، الطبعة الأولى ٢٠٠٣م، دار الغرب الإسلامي، بيروت – لبنان.

تاريخ ابن يونس الصدفي، تحقيق: الدكتور عبد الفتاح فتحي عبد الفتاح، الطبعة الأولى ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان.

ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، القاضي عياض بن

موسى السبتي، تحقيق: عبد القادر الصحراوي، الطبعة الثانية ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الدار البيضاء – المغرب.

التعليقات، الشيخ الرئيس أبو علي ابن سينا، تحقيق: سيد حسين موسويان، الطبعة الأولى ١٣٩١هـ ش، المعهد الإيراني للفلسفة، طهران – إيران.

خلاصة شروح الجوهرة، المسمى: الفريدة في العقيدة، العلامة الشيخ محمد ماضي الرخاوي، تحقيق: الدكتور محمد عبد القادر نصار، الطبعة الأولى ٢٠١٦م، دار الإحسان للنشر والتوزيع، القاهرة – مصر.

رياضة المتعلمين، الإمام ابن السني، تحقيق: نظام محمد صالح يعقوبي، الطبعة الأولى ١٤٣٦هـ/ ٢٠١٥م، دار النوادر، بيروت – لبنان.

السنن، الإمام أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني، تحقيق: الدكتور محمد عوامة، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م، مؤسسة الريان للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان.

سنن الترمذي، الحافظ أبو عيسى محمد بن عيسى الترمذي، تحقيق: الدكتور بشار عواد معروف، الطبعة الأولى ٨٩٩١م، دار الغرب الإسلامي، بيروت – لبنان.

سنن الدارمي، الحافظ أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي، تحقيق: حسين سليم أسد الداراني، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ/ ٢٠٠٠م، دار المغني للنشر والتوزيع، الرياض – السعودية.

شرح السنة، الإمام محيي السنة البغوي، تحقيق: شعيب الأرناؤوط ومحمد زهير الشاويش، الطبعة الثانية ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م، المكتب الإسلامي، بيروت – لبنان.

شرح صحيح البخاري، أبو الحسن ابن بطال المالكي، تحقيق: أبو تميم ياسر بن إبراهيم، الطبعة الثانية ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٣م، مكتبة الرشد، الرياض – السعودية.

شرح العقيدة الطحاوية، العلامة الفقيه عبد الغني الغنيمي الميداني الحنفي، تحقيق: محمد مطيع الحافظ ومحمد رياض المالح، الطبعة الثالثة ١٩٩٥م، دار الفكر، دمشق – سوريا.

صحيح البخاري، الإمام أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، باعتناء: محمد زهير ناصر الناصر، نشرة مطابقة للطبعة السلطانية، ١٤٢٢هـ، دار طوق النجاة، جدة – السعودية.

صحيح مسلم، الإمام مسلم بن الحجاج القشيري، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م، جمعية المكنز الإسلامي، القاهرة – مصر.

فتح الباري شرح صحيح البخاري، الحافظ ابن حجر العسقلاني، تحقيق: محب الدين الخطيب، المكتبة السلفية، القاهرة – مصر.

المراسلات بين صدر الدين القونوي ونصير الدين الطوسي، تحقيق: كودرن شوبرت، ١٩٩٥م، المعهد الألماني للأبحاث الشرقية، بيروت – لبنان.

المسند، الإمام أحمد بن حنبل، تحقيق: مكتب البحوث بجمعية المكنز، الطبعة الأولى ١٤٣١ه/ ٢٠١٠م، جمعية المكنز الإسلامي، دار المنهاج للنشر والتوزيع، جدة – السعودية.

المصنف، الحافظ عبد الرزاق الصنعاني، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، الطبعة الثانية ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م، المكتب الإسلامي، بيروت – لبنان.

المعجم الأوسط، الحافظ أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني، تحقيق: طارق عوض الله محمد وعبد المحسن إبراهيم الحسيني، طبعة ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م، دار الحرمين، القاهرة – مصر.

مفاتيح الغيب، الإمام فخر الدين الرازي، الطبعة...، دار الفكر...، بيروت – لبنان.

المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، الحافظ أبو العباس أحمد بن عمر القرطبي، تحقيق: محيي الدين ديب مستو ويوسف علي بديوي وأحمد محمد السيد ومحمود إبراهيم بزّال، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م، دار ابن كثير، دمشق – سوريا.

مقدمات المراشد إلى علم العقائد، ابن خمير السبتي، تحقيق: الدكتور جمال علال البختي، الطبعة الأولى ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م، مطبعة الخليج العربي، تطوان – المغرب.

مناقب الشافعي، الإمام البيهقي، تحقيق: السيد أحمد صقر، مكتبة دار الثراث، القاهرة – مصر.

المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، الإمام محيي الدين النووي، الطبعة الأولى ١٣٤٩هـ/ ١٩٣٠م، المطبعة المصرية، القاهرة – مصر.

الميسر في شرح مصابيح السنة، شهاب الدين فضل الله بن الحسن التوربشتي الحنفي، تحقيق: الدكتور عبد الحميد هنداوي، الطبعة الثانية ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م، مكتبة نزار مصطفى الباز، مكة المكرمة – السعودية.

إصدارات أخرى من مبادرة سؤال (أبحاث)

1 . قيمة السؤال

2 . استدلال الشيخ مصطفى صبري على وجود الله في السياق الحداثي

3 . الأزمة الروحية

4 . الأخلاق والتجريبية ، نظرات نقدية في كتاب «المشهد الأخلاقي» لسام هارِس

5. مقتطفات من تاريخ الفلسفة في العالم الإسلامي

إصدارات أخرى من مبادرة سؤال (مطويات)

1. من حقي ان اسأل

2. العقلية الخرافية

3. الايمان الاعمى

مؤسسة طابة
Tabah Foundation
www.tabahfoundation.org

دار الفقيه للنشر والتوزيع
DAR AL FAQIH

مبادرة سؤال هي إحدى مبادرات مؤسسة طابة للأبحاث والاستشارات

Suaal.org

facebook.com/suaalorg
twitter.com/suaalorg
youtube.com/suaalorg
instagram.com/suaalorg